وما سواها (365)

سلـــــوك التسامـــــح!!

د. صادق السامرائي- الطب النفساني، العراق / أمريكا

التسامح: إحترام عقائد الآخرين , التساهل , الإقرار بأن البشر المختلفين بطبعهم في مظهرهم وأوضاعهم ولغاتهم وسلوكهم وقيمهم لهم الحق في العيش معا بسلام.

وما أكثر الكلام عن التسامح في أدبيات الأمم والشعوب , لكن التعبير السلوكي عنه يكاد يكون مغيّبا , في معظم الحالات , مما يترتب عن ذلك , صراعات بينية وإقليمية وعالمية , يذهب ضحيتها الملايين من أبرياء البشر.

وهذا إقتراب بعيون نفسية سلوكية , لإبراز أهمية التسامح كتفاعل صالح للبشرية.

التسامح: إحترام عقائد الآخرين , التساهل , الإقرار بأن البشر المختلفين بطبعهم في مظهرهم وأوضاعهم ولغاتهم وسلوكهم وقيمهم لهم الحق في العيش معا بسلام

ما أكثر الكلام عن التسامح في أدبيات الأمم والشعوب , لكن التعبير السلوكي عنه يكاد يكون مغيّبا , في معظم الحالات , مما يترتب عن ذلك , صراعات بينية وإقليمية وعالمية , يذهب ضحيتها الملايين من أبرياء البشر

أولا: العفو والتسامح!!

العفو والتسامح قيمة إنسانية سامية , ذات معاني إيجابية وتفاعلات أخلاقية راقية , تشير إلى الفهم الصحيح لجواهر أفكار الإسلام الأصيلة. وقد ذكر القرآن العفو والتسامح في عدد من الآيات:

"خذ العفو وأمر بالعُرف وأعرض عن الجاهلين" الأعراف 199

هذا العفو قانون الحكمة والقدرة على إدارة المجتمعات القوية القادرة على صناعة الحضارة القدوة , لأنها ستعطي أمثالا حية عن السلوك الإنساني الصحيح.

" وليعفوا وليصفحوا , ألا تحبون أن يغفر الله لكم" النور 22

والعفو لرقي سماته وأخلاقه يكون مقرونا بمغفرة من الله , لأن الإنسان قد تمكن من الإنتصار على نفسه السيئة وارتقى إلى حيث كونه إنسان عاقل متمكن من عقل عواطفه والتعبير عن رؤيته الإسلامية الصحيحة.

" فاصفح الصفح الجميل" الحجر 85

وفي هذه الآية ما يشبه الأمر لأهمية هذا السلوك ودوره التربوي الأخلاقي الكبير والمؤثر في حياة الناس والأجيال , وهو سلوك يؤكد جمال النفس القائمة به ونقاءها وصفاء محتواها وإيمانها ووعيها وإدراكها الرحيب.

وقال الإمام علي بن أبي طالب:

" أعقل الناس أعذرهم للناس"

وهنا تأكيد على أن العفو سلوك العقلاء والحكماء , الذين إستطاعوا أن يقرنوا القوة بالعقل والحكمة, ولم يطيشوا ويبدو كحمقى في عيون التاريخ.

" أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة"

العفو والتسامح قيمة إنسانية سامية , ذات معاني إيجابية وتفاعلات أخلاقية راقية , تشير إلى الفهم الصحيح لجواهر أفكار الإسلام الأصيلة. وقد ذكر القرآن العفو والتسامح في عدد من الآيات

ليس من القوة والبطولة أن يبطش البشر بالبشر , والأقوياء حقا , هم الذين لا يلجؤون للقوة فورا , وإنما هي من آخر أدوات العلاج , فإذا وجد القوي أن العفو أفضل من القوة فعليه أن يعفو , أما إذا حسب كل شيئ إنما قوة , فهذا تفكير أخرق , لأن القوة ستنقلب على الذي يحسب نفسه قويا , وتنتقم للذين وقع فعل القوة عليهم , بينما العفو يقلل الأعداء واللاعفو يزيد من العداوة والمشاعر السلبية ضد الفاعل.

وقال الإمام جعفر الصادق:

" لأن أندم على العفو خير من أن أندم على العقوبة"

وفي هذا القول تتجسد حقيقة سلوكية كبيرة خلاصتها أن فعل القوة يكون منفعلا , وعندما يثوب الفاعل إلى العقل يرى بأنه قد أخطأ . ولهذا كان الخليفة عمر بن عبد العزيز يحبس المذنب ثلاثة أيام قبل أن يعاقبه , لكي يترك للعقل وقتا كافيا لإستحضار عناصر القرار الأصوب.

وقالت العرب:

"العفو عند المقدرة من شيم الكرام"

الكرم فعل عاقل يؤكد إنتصار العقل على النفس , ولكي تعفو يجب أن تكون عاقل السلوك , ولهذا يكون العفو نوع من الكرم النبيل.

وقال جواهر لال نهرو:

"النفوس الكبيرة وحدها تعرف كيف تسامح"

والنفوس الكبيرة هي العاقلة التي يتحكم بها العقل وليس العكس. والنفوس الكبيرة معروفة في الكثير من الأقوال والأشعار على مر العصور , لأن البشرية قد وعت أهميتها وضرورتها للبناء الإجتماعي الصالح للبقاء الأفضل.

وقال أبو دلامة :

" العفو أحسن ما يُجزى المُسيئ به يهينه أو يُريه أنّه سَقطا"

فالعفو عمل أخلاقي وتأديبي فعّال , لأنه سيعطي المذنب درسا تربويا كبيرا يساهم في إعادة النظر بدوافعه السلوكية والإرتقاء بروحه ونفسه إلى حالة أخرى جديرة بالحياة.

وأخيرا:

إذا صَحّت نفوسٌ جاء عفوٌ وإنْ مَرضَت فلا عفوٌ يُنالُ

عليل النفس من شرٍ يعاني إلى ضررٍ وإيلامٍ يُحالُ

ظلومٌ جائرٌ ضاقت رؤاه فلا عَرِفت سِوى نقما يُدالُ

فهل نحن ذووا نفوس كبيرة ونمتلك ثقافة صحيحة تعيننا على العفو والتسامح لكي تنطلق قدراتنا الحضارية الصالحة للعالمين؟!

ثانيا: التسامح والسلام!!

"فاصفحِ الصفحَ الجميل" الحجر85

سأتناول الموضوع وفقا لمنظار الطبيعة البشرية والآليات النفسية , التي تحرك السلوك وتحدد خارطة التوجهات.

فهل أن التسامح والسلام من طبع البشر؟

إن أية نظرة متفحصة أو سريعة لمسيرة الحياة البشرية فوق التراب , تؤكد بأن السلام سراب نطارده والتسامح حلما من أحلام اليقظة!!

ولهذا إستمرت الحروب وإشتد أوارها , وتم إستخدام وتسخير المبتكرات للقيام بفعل الشر , وما أبدعناه ضد التسامح والسلام يتفوق كثيرا على ما أوجدناه من أجلهما.

خذ العفو وأمر بالعُرف وأعرض عن الجاهلين" الأعراف 199
هذا العفو قانون الحكمة والقدرة على إدارة المجتمعات القوية القادرة على صناعة الحضارة القدوة , لأنها ستعطي أمثالا حية عن السلوك الإنساني الصحيح

العفو لرقي سماته وأخلاقه يكون مقرونا بمغفرة من الله , لأن الإنسان قد تمكن من الإنتصار على نفسه السيئة وارتقى إلى حيث كونه إنسان عاقل متمكن من عقل عواطفه والتعبير عن رؤيته الإسلامية الصحيحة

فاصفح الصفح الجميل" الحجر 85
وفي هذه الآية ما يشبه الأمر لأهمية هذا السلوك ودوره التربوي الأخلاقي الكبير والمؤثر في حياة الناس والأجيال , وهو سلوك يؤكد جمال النفس القائمة به ونقاءها وصفاء محتواها وإيمانها ووعيها وإدراكها الرحيب.

وقالت العرب:
"العفو عند المقدرة من شيم الكرام"

فالسلام حالة أرضية غير ممكنة وكذلك التسامح , لأنهما لا يصلحان كوسيلة أو مبدأ للبقاء والتواصل. فالأرض تفرض قوانينها وإرادة التراب تتفوق, والصراع ما بين أقطاب الوجود متواصلة , وبها يبقى ويتجدد وبدونها ينتفي ويغيب تماما.

فقانون الصيروة الكونية والديمومة الحية محكوم بالصراع ومعطياته , وبقوانين الغاب ودستورها الذي يتسلط على سلوك الأحياء بأسرها ومنها البشر.

ولو كان التسامح مفيدا ويمتلك قدرات إقتصادية وبقائية لتأكدت تقاليده وأعرافه منذ أبعد الأزمان , لكن الواقع البشري عبر العصور يؤكد أن الحروب هي السائدة , والعدوان هو المتحقق والمؤكد والفاعل في الحياة.

وقد خاضت البشرية أقسى وأعتى الحروب في القرن العشرين , وهي مقبلة على الأعتى والأقسى في القرن الحادي والعشرين , الذي توفرت فيه أسباب التدمير الفائق والخارق .

فقد تعلمت البشرية أساليب للفتك ببعضها لم تخطر على مَن سكن الأرض قبل هذا العصر المتفجر بالطاقات الخارقة , فالعقل قد تمكن من الخيال , والأفكار صارت صاغرةً طائعةً لإرادة البشر وإستبداد أمّارة الهوى التي تتوطنه.

فالكلام عن التسامح يعني الكلام عن السلام, وحضور السلام لا يعني بالضرورة تحقيق التسامح, فالسلام قد تصنعه القنابل النووية كما حصل في الحرب العالمية الثانية.

والسلام الذي يسعى إليه البشر هو سلام الغلبة والإفتراس , وليس سلام التسامح والمحبة والأخوة , لأن في ذلك تعارض مع طبائع النفوس , وتعطيل لآليات الصراع الذي يحكم خطوات المخلوقات , ويتأكد مع دوران الأرض التي تضخنا بطاقات التلاحم المرير.

فالبشرية في سلوكها محكومة بالإنفعال والعواطف الساخنة , التي تسخر العقول لمصالحها وليس العكس , ومشكلة التسامح مرتبطة بسيرورات العواطف والإنفعالات المتحكمة بقدرات البصر والإدراك وضبط السلوك , أو ما نسميه بالحلم , الذي يندر بين الناس , فلو ساد الحلم لساد التسامح , لكن العواطف دوما منتصرة , ولا يمكن للنفوس أن تهدأ إذا ثارت , وقد تتوارث الأجيال ثورتها , لأنها تتسبب في تغيرات جينية فاعلة في سلوكنا , وكيفيات إدراكنا وإستقبالنا لأحاسيسنا وما يدور حولنا.

فمسيرة البشرية الطويلة الغنية بالصراعات والحروب والعدوان , خلّفت موروثات جينية كثيرة من الصعب التحرر من قيودها وتحطيم أسرها والإنتصار على إرادتها.

فالعدوان متعة المخلوقات , والتسامح لا يوفر لها تلك اللذة البقائية المتأججة التي يمنحها لها العدوان , الذي يعني القوة والإنتصار على إرادة الموت أو التوهم بذلك.

فما دام الموت قائما , فمن الصعب على المخلوقات في مسيرتها ما بين الولادة والختام , أن تستكين للتسامح وتؤمن حقا بالسلام , لأن الموت طاقة فاعلة في دياجير لا وعيها , وقوة تحركها بإتجاه هدف نهايتها وتجددها بالتوالد المعبر عن الأصلح فيها.

والمشكلة العصية الي تجابه التسامح والسلام , أن المردودات الإقتصادية للسلام أقل من مردودات الحروب والعدوان , فالحروب ومنذ بدايتها كانت نشاطات إقتصادية , تستبيح بموجبها المجتمعات مجتمعات أخرى وتمتلك ثرواتها وقدراتها المادية والبشرية , وتسرق جيناتها بالتزاوج مع الغنائم الأنثوية بعد إبادة الذكور أو إستعبادهم.

ولا يمكن لبشرية قطعت هذه الأشواط الطويلة من الصراعات الدامية المدمرة , أن تركن بسهولة إلى السلام والتسامح , وتؤمن بأنهما سيوفران لها حياة إقتصادية آمنة.

قد يكون هذا المنطق غريبا , لكنه فاعل في ديناميكية العدوان المتواصل فوق الأرض , ففي كل حرب تستباح مجتمعات وأعراض وثروات وتزهق أرواح ويربح مَن يربح ويخسر مَن يخسر , لكن البشرية تنطلق إلى عالم آخر بعد كل صراع فتاك , وقدراتها في التقدم والتطور تتناسب مع شدة حروبها وقسوتها .

الكرم فعل عاقل يؤكد إنتصار العقل على النفس , ولكي تعفو يجب أن تكون عاقل السلوك , ولهذا يكون العفو نوع من الكرم النبيل

وقال جواهر لال نهرو: "النفوس الكبيرة وحدها تعرف كيف تسامح"

إن أية نظرة متفحصة أو سريعة لمسيرة الحياة البشرية فوق التراب , تؤكد بأن السلام سراب نطارده والتسامح حلما من أحلام اليقظة!!

الكلام عن التسامح يعني الكلام عن السلام , وحضور السلام لا يعني بالضرورة تحقيق التسامح , فالسلام قد تصنعه القنابل النووية كما حصل في الحرب العالمية الثانية

السلام الذي يسعى إليه البشر هو سلام الغلبة والإفتراس , وليس سلام التسامح والمحبة والأخوة , لأن في ذلك تعارض مع طبائع النفوس , وتعطيل لآليات الصراع الذي يحكم خطوات المخلوقات

مسيرة البشرية الطويلة الغنية بالصراعات والحروب والعدوان ,

ولهذا فأن الحرب العالمية الثانية أنجبت ما لا يخطر على البال من المبتكرات , وكذلك الحرب الباردة التي هي رمز للصراع المحتدم ما بين القوى البشرية , والتي عبرت عن طاقات العدوان واللاتسامح ما بين البشر , وإنتهت إلى ما نحن عليه من منجزات في النصف الثاني من القرن العشرين وما بعده , أي أنها عززت السلوك العدواني وأضعفت قدرات التسامح ما بين الناس.

وبخصوص الأديان ففي جوهرها ذات منهج متقارب وتدعو إلى ذات المبادئ , التي لا يمكنها أن تتجسد فعلا وتكون واقعا حيا , وهي في تصارع وتباعد وعدم إطمئنان , بسبب الأمية الدينية القائمة والمؤكدة في الذين يدّعون هذا الدين أو ذاك , أو الذين تفاعلوا مع الدين بقوة عاطفية شديدة العماء , لدرجة أنهم صاروا طاقات عدوانية مؤهلة للإنفجار السريع والمدمر , ليس بسبب الفهم الصحيح للدين , وإنما بفعل تجسيدهم لعدوانيتهم ومنحها معاني سامية أخرى تسوّغها , فيصير عندهم القتل عادة ونوع من طقوس الدين , ليريحوا ضمائرهم الخربة التي تعذبها اليقظة بين الحين والحين.

وهكذا فأن التسامح والسلام سيبقيان من أحلام البشرية الأبدية العصية على التجسيد فوق التراب , إلا فيما قلّ وندر بين بعض البشر المتنور , والصاعد بمداركه إلى حيث التسامي الإنساني الرحيم , والتمثل المطلق العميق لمعاني الوحدانية وقوانين الكينونة الكونية , وتبدو كترف فكري وتطلع لا يقر بمنطقه منهج التراب وتنكره عقيدة الطين.

ونحن مخلوقات تعادي ما لا تدريه , وكلما إزدادت مسافات عدم معرفتنا لبعضنا , كلما إزدادت عدوانيتنا على بعضنا البعض , وكأن فينا قوى تمنعنا من الإصغاء لبعضنا وتوهمنا بالمعرفة الأنانية , وترغمنا على إتهام الآخر بما يبرر لنا العدوان عليه وفقا لقدراتنا.

فهل رأيتم قوةً لا تظلم وقويا لا يستبد , وطاقةً لا تعبر عن نفسها وتؤثر في محيطها؟

ففي النفوس قوى وطاقات لابد لها أن تظهر وتدخل في خضم الصراع الأرضي المحتدم , الذي تمنحه طاقات البقاء أمنا الشمس وهي ترقب مطحنة الأرض الدوارة فينا.

وبدلا من التركيز على التسامح والسلام من العملي والنافع أن نركز على التفاعل المفيد بين البشر , ونوفر الظروف الموضوعية اللازمة لتنمية القدرات الإيجابية ذات المصلحة المشتركة , ونبتكر قوانين التعاون المعاصرة , التي ربما ستمنحنا فرصة لتحقيق الأفضل والإقتراب من بعضنا , ورعاية مفردات الإطمئنان والأخوة الإنسانية , التي ربما تؤثر في تغيير مواقفنا وخرائط سلوكنا التي نراها غير مجدية.

وختاما , يبدو أن أدمغتنا قد تشكلت بوسائل تؤهلها للتعبير عن التخاصم والعدوان والحروب أكثر من التسامح والسلام , ولكي نعيد تشكيلها فأننا بحاجة إلى مسيرة أجيالٍ وأجيالٍ وأجيال.

خلّفت موروثات جينية كثيرة من الصعب التحرر من قيودها وتحطيم أسرها والإنتصار على إرادتها

بخصوص الأديان ففي جوهرها ذات منهج متقارب وتدعو إلى ذات المبادئ , التي لا يمكنها أن تتجسد فعلا وتكون واقعا حيا , وهي في تصارع وتباعد وعدم إطمئنان , بسبب الأمية الدينية القائمة والمؤكدة في الذين يدّعون هذا الدين أو ذاك , أو الذين تفاعلوا مع الدين بقوة عاطفية شديدة العماء

هكذا فأن التسامح والسلام سيبقيان من أحلام البشرية الأبدية العصية على التجسيد فوق التراب , إلا فيما قلّ وندر بين بعض البشر المتنور , والصاعد بمداركه إلى حيث التسامي الإنساني الرحيم , والتمثل المطلق العميق لمعاني الوحدانية وقوانين الكينونة الكونية

إرتباط كامل النص:
http://www.arabpsynet.com/Samarrai/DocSamarraiWaMaSawahaa365-060524.pdf

*** *** ***

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقيا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي
http://www.arabpsynet.com/

المتجر الالكتروني
http://www.arabpsyfound.com

الكتاب السنوي 2024 1 " شبكة العلوم النفسية العربية " (الاصدار الخامس عشر)

الشبكة تدخل عامها 24 من التأسيس و 21على الويب
http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf